

الفرقان
في تفسير القرآن
بالقرآن والسُّنة

الفرقان

في تفسير القرآن

بالقرآن والسنة

الجزء الثامن عشر

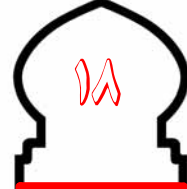
تتمة سورة الكهف - سورة مريم

سورة طه

سماحة الشيخ

الدكتور محمد الصادقي

٥



تتمة

سُورَةُ الْكَهْفِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَأْتَلُ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَعِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾

صرف للرسول ﷺ عن القيل والقال والإصغاء إلى أصحاب المقال في آرائهم واقتراحاتهم الناكبة عن الصراط، والاتحاد إلى الرب وكلماته، وأن يصبر نفسه مع الذين يدعون، ماشياً على صراط الحق، متمسكاً بصراح الحق فتعم الثواب ونعم المرتفق!

﴿وَأْتَلُ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ

مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ : ﴿

أصل التلاوة هي المتابعة ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾ ﴿١﴾ وَالْقَمَرَ إِذَا نَلَّهَا ﴿٢﴾ ﴿١﴾ فلا شأن لك ولا واجب عليك إلا متابعة كتاب ربك قراءة وتفهماً وتفهماً وإبلاغاً وتطبيقاً، ﴿وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ﴾ . . . لا ما أوحاه عقلك آمن سواك، وإنما ﴿مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾ القرآن العظيم، دون أن تبخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً، أو أن تستعجل وحي ربك فتعدهم الجواب ناسياً ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ ودون الالتحاد إلى أي وحي أو استفناء أو استيحاء، وإنما ﴿مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾ فحسبك ربك وكتاب ربك إذ ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ : ربك ولا كتابه ﴿وَلَنْ يَجِدَ مِنْ دُونِهِ﴾ : ربك ولا كتابة ﴿مُلْتَحَاً﴾ .

فهما وصفان متلاحمان «الربك» و﴿كِتَابِ رَبِّكَ﴾ : ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ والقرآن أفضل كلماته، ﴿وَلَنْ يَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَاً﴾ وملتحمه الموحى إليك هو قرآنه كما هو تعالى ملتحدك في كل ما تحتاجه، ملتحد تكويناً وملتحد تشريعاً لا مبدل لهما!

فكلماته التشريعية التدوينية ككل لا مبدل لها من غيره تعالى نسخاً إلا تحريفاً في غير القرآن : ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ ﴿٢﴾ وكلماته الأخيرة القرآن، لا مبدل لها إطلاقاً إذ تَمَّت ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٣﴾ لا مبدلاً من غير الله تحريفاً وتجديفاً، مهما كان لغير القرآن تحريف وتجديف، ولا مبدلاً إلهياً نسخاً وتبديلاً كشرعة تنسخ وتبديل، فالقرآن كما كان وكما هو الآن قائم مر الدهور والأعوام إلى يوم القيام لا نسخ فيه ولا تحريف يعتريه دون سواه من كلمات الله وكتابه.

و﴿مُلْتَحَاً﴾ : متمائلاً يجير إليه، أولاً هو الله لأي ملتحد وعلى أية حال

(١) سورة الشمس، الآيتان: ١، ٢.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٣٩.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١١٥.

إجارة وجواراً: ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُخِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾ إِلَّا بَلَّغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ... ﴿١﴾ ومن ثم لن أجد ملتحداً من وحيه إلا كلماته الأخيرة القرآن المبين، فهناك الله وهنا كتاب الله ثم لا سواه ولا سواه.

هنا ﴿لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ في استغراق نفي التبديل يجعل من القرآن كتاباً لا نسخ له ولا تحريف، إذاً فهو كتاب الزمن وخاتمة الوحي لا كتاب بعده ما طلعت شمس وغربت!

ومن ثم ﴿وَلَنْ يَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ تحيل ملتحداً من دون القرآن كما تحيله من دون الله، ضرباً إلى أعماق الزمن ما بقي الدهر، فمهما غاب شخص الرسول ﷺ لا تغب رسالته القرآنية وإذا الرسول وهو أول العابدين «لن تجد...» فغيره أحرى أن «لن يجد» ف«لن تجد» وإن كان خطاباً لشخص الرسول ﷺ ولكنه بإحالة «لن» وأول العابدين في «تجد» يطوي كل زمان ومكان وكل إنس وجان حتى القيامة الكبرى. فتحيل أي ملتحد طول الزمان وعرض المكان سوى القرآن كما آله القرآن!

﴿وَلْيَتُوبُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾:

ولماذا ﴿ثَلَاثَ مِائَةٍ﴾ دون إضافة وبتتميز جمع ﴿سِنِينَ﴾ خلاف القاعدة المطردة من إضافتهما إلى مفرد؟

الآن ﴿سِنِينَ﴾ نزلت بعد ﴿ثَلَاثَ مِائَةٍ﴾ حين سئل الرسول: أياماً أو شهوراً أو سنين؟^(٢) ونزولها دون سنين إهمالها في إجمال تبعد عنه ساحة القرآن البيان!

(١) سورة نوح، الآيتان: ٢٢، ٢٣.

(٢) الدر المنثور ٤: ٢١٨ أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الضحاك قال: نزلت هذه الآية ﴿وَلْيَتُوبُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ...﴾ [الكهف: ٢٥] قيل يا رسول الله ﷺ أياماً أم شهوراً أم سنين؟ فأنزل الله: سنين وازدادوا تسعاً.

أم إنها بدل عنها فلا إضافة إلى مفرد خلاف التميز، فثلاثمائة هي سنين مُضمَّنة معنى التمييز؟ وهذا خلاف المألوف مما يلحق العدد فإنه - دوماً - التمييز!

أم إنها قاعدة راجحة أو مخيرة فيما إذا كان مضاف العدد المركب جمعاً، فالتمييز أيضاً لجمعه، أو مفرد للمضاف إليه «مائة» والقرآن أفضل أصل لاقتباس القواعد فلا يقاس بسائر القياس المستفاد من سائر الأدب العربي شعراً أو نثراً؟ فليؤخذ أدب القرآن لفظياً كما هو معنوياً نبراساً لكل قاعدة وفائدة.

﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (٢٨):

نفس مطمئنة يروضها ربها بالتقوى إيناساً بربها ووحيه، وصبراً مع الذين يدعونه يريدون وجهه، ويرفضها عن الطغوى بطاعة من أغفل قلبه عن ذكره واتبع هواه وكان أمره فرطاً.

هنا أمر بصبر نفسه المقدسة معهم ونهي أن يعدو عيناه عنهم ونهي ثانٍ أن يطبع غفلان القلوب، يتبنى صرح هذه الرسالة السامية على بساط الفقراء إلى الله، دون الأثرياء الأغبياء الأغنياء في حسابانهم عن الله، مهما طالت وعودهم وأبرق وقودهم: «لو جلست في صدر المجلس وتغيبت عن هؤلاء وأرواح جبابهم حادثناك وأخذنا عنك»^(١) وكما كان يقول أضرابهم للأنبياء

(١) الدر المنثور ٤: ٢١٩ - أخرج ابن مردويه وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان عن سلمان الفارسي قال: جاءت المؤلفة قلوبهم إلى رسول الله ﷺ، وعنده عيينة بن بدر والأقرع بن حابس فقالوا يا رسول الله ﷺ: وجلست في صدر المجلس وتغيبت عن هؤلاء وأرواح جبابهم - يعنون سلمان وأبا ذر وفقراء المسلمين وكانت عليهم جباب الصوف =